مع موقف الفلسطيني المعاصر في هذا الكون الفاسد. فهو عرف جيداً ان الجناة هم ممثلو المحكمة؛ ومن ثمّ تحوّل الصمت الى موقف معبّر عن تطوّر جديد في الموقف الذي اتخذه مضطراً تحت ضغط الواقع، وما يتظاهر به افراد المحكمة. وما دام الصمت يعني، في عرف المحكمة، الادانة، فان الادانة كانت قائمة قبل اتخاذ هذا الموقف، وبالتالي، بعده. انه التقوقع في الذات والهمس الى الداخل. لنقرأ مناجاة الذات:

«لماذا يصمت المتهم أمام الاتهام؟ لماذا يتخلّى عن حق الانسان الاول في الدفاع عن نفسه، الاّ اذا كان شاعراً بأن ليس ثمّة ما يقال أمام واحدة من أبشع الجرائم»[١٢].

ان المتهم، وقد كان محامياً سابقاً (انظر المفارقة)، دهش في صمته من محاميه الذي حاول «ان يحرج القضاء، ويضع العدالة في مأزق...»، ذلك لأن الصمت، يحمل في طويته موقفاً، والموقف يعني انه ما دام العالم متواطئاً مع هيئة المحكمة (المجرمين الحقيقيين)، فمن العبث الدفاع عن النفس.

ان الدفاع تحوّل الى موقف «كافكاوي» وعبّر عن عبث لا طائل وراءه.

ان المتهم، هنا، عرف، بفعل وعيه، بجريمة لم يقترفها، بينه وبين نفسه؛ بأنه بريء، متّهم بريء. وما دام هو مؤمن، في قرارة نفسه، ببراءته، فانه، بالتبعية، عرف انه سيصبح البريء بين المذنبين. فالمذنبون هم قضاته. ومن العبث ان يفهم لغتهم، أو يفهموا لغته. ومن هنا، اصبح الصمت اللغة الوحيدة المتاحة. والصمت عنده عنى الشجاعة في مواجهة المصير، وهو الحل الوحيد للمواجهة، ما دام لا يملك حلاً آخر.

٢ ـ من هو الشيء الآخر؟: ان الصمت، هنا، ظل احتجاجاً على تهمة لم يرتكبها، وظل، أيضاً، واستمر، «اعلاناً راعداً عن ' شيء آخر ' في حياتنا، عشنا، دائماً، في معزل عنه، فاذا به، فجأة، أقوى ما في حياتنا»[١٣].

وبينما طرح المتهم / الروائي ذلك على شكل سؤال، فانه كان مقدمة لطرح السؤال المحوري، وكأنه اجابة سبق ان طرحها: فمن قتل ليلى الحايك؟ ولم يلبث ان غادر التلميح الى التصريح، فأجاب بسرعة: «الشيء»! فظلت الاجابة معلّقة بسؤال آخر: من هو «الشيء» الآخر؟ وأجاب: «شيء لم يعرفه القانون، ولا يريد ان يعرفه... شيء موجود فينا؛ فيك انت؛ فيّ أنا؛ في زوجها؛ وفي كل شيء احاط بنا جميعاً منذ مولدنا»[١٤].

وتحوّل هذا الشيء، في أكثر من مظهر. تحوّل من الخارج، من القوى الظاهرة (العدو الصهيوني ـ الغربي)، الى قوة داخلية (الضعف البشري). ان هذه الجريمة (التي لم ارتكبها)، كما اعترف، هي «عقدة الذنب التي تسيطر على مشاعري الداخلية»[١٥]، وأكدت له انه لولا الضعف في الوعي القومي، والضعف في المجابهة منذ فترة مبكرة، لما حدث ما حدث.

لقد انقلبت الامور رأساً على عقب. تحدّدت الجريمة المحبوكة ضده، وانْ كان هو الوحيد الذي أيقن ان ما حدث حوله، وعنه، هو «قصة غير حقيقية». وتحوّل الاتهام الخارجي الى واقع داخلي حادّ. لكن، ماذا يعني ذلك؟ ان الاجابة تحدّدت، استقامت، في الداخل: لو ان المتهم كان أكثر وعياً لما أمكن ان يحدث حوله، ولما كان ما كان، ولما جرؤ هذا (الشيء) ان يفعل ذلك كله ضده، ولما اختلطت الخيوط على هذا النحو:

«لقد صرت قانعاً بأن الذي رتّب القصة كلها هو ' شيء ' أكبر من تسلسل الحوادث المنطقي؛